رحلة العلماء الى البادية
ورحلة الأعراب الى الحضر

أحمد أمين

كان كثير من الأعراب يفدون على مدن العراق، فيأخذ العلماء عنهم اللغة، وقد عدّ ابن النديم في الفهرست عدداً، منهم أبو زياد الكلابي، أبو سَوّار الغنوي ــ وقد أخذ عنه أبو عُبيدة ــ ونور بن يزيد - وقد أخذ عنه إبن المقفع - وأبو خيرة العدوي، وأبو مهدية، وأبو مسْحل، وأبو ضَمْضَم الكلابي [1] وقد إتصل بهم علماء اللغة يأخذون عنهم ومن هؤلاء الأعراب من كان يكتب ويؤلف كتبًا. كأبي زياد الكلابي ألّف كتاب النوادر، وكتاب الفرق، وكتاب الإبل، وكتاب خلْق الإنسان. ومنهم من كان يعلّم اللغة ويتعلم النحو على علمائه، كأبي مسْحَل فقد أخذ النحو عن الكسائي. ومنهم من كان يميل الي الغريب النادر، ويتقعر في كلامه، ويغلّظ طبعه ليبرهن علي إمعانه في البداوة، كأبي مُحَلّم الشّيباني. وكانوا يتكسبون بذلك فمنهم من كان يعلم الصبيان بأجرة كأبي البيْداء الرّباحي، ومنهم من كان يفد على الأمراء كأبي ضمضم وفد على الحسن بن سهل، وكثير من الأعراب كانوا يفدون على إسحاق الموْصلي [2].

وكما كانت الأعراب ترحل الى الحضر للكسب أو طلب العلم، كان العلماء والأدباء يرحلون الى البادية في طلب اللغة والأدب، فيحدثنا الأغاني أن بشاراً «قيل له ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلاّ وقد قال فيه شيئًا استنكرته العرب من ألفاظهم، وشكّ فيه، وإنه ليس في شعرك ما يشك فيه. قال: ومن

1- الفهرست: 43 وما بعدها. 2- أغاني: 77، 81، 90، 120.
2- أغاني 3: 26، وأبدى أقام بالبادية.

أين يأتيني الخطأ؛ وولدت هاهنا ونشأت في حجور ثمانين شيخًا من فصحاء بني عقيل، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ، وإن دخلت الى نسائهم، فنساؤهم أفصح منهم، وأيْفَعْتُ فأبديتُ الى أن أدركت، فمن أين يأتيني الخطأ!». ويقول نزل ظاهر البصرة قوم من أعراب قيْس عيْلان وكان فيهم بيان وفصاحة، فكان بشار يأتيهم (وكان يأتيهم أبان اللاحقي) [1]

وكان علماء اللغة من بصريين وكوفيين يتسابقون في الرّحلة الى البادية، والأخذ عن العرب. وقد اشتُهر في عصرنا بهذه الرحلة أبو زيد الأنصاري، وأبو عمرو ابن العلاء، والأصمعي والكسائي. فأبو زيد يقول في أول كتابه النوادر «ما كان فيه من شعر القصيد؛ فهو سماعي من المفضل بن محمد الضّبي، وما كان من اللغات، وأبواب الرّجز؛ فذلك سماعي من العرب». وسأل الكسائي الخليل بن أحمد، من أين علمك هذا؟ فقال من بوادي الحجاز، ونجد وتهامة.

فخرج الكسائي وأنفذ خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه» [2]. وأما أبو عمرو بن العلاء، فقد رووا؛ أن كتبه عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتًا له الى قريب من السقف» [3] وتاريخ الأصمعي مملوء بالقصص عن الأعراب في البادية، وما سمع منهم من لغة وشعر وقصص.

ولم يكن عمل علماء اللغة في ذلك العصر، إلاّ نقل ما يسمعون من العرب مشافهة إلى التقييد بالكتابة، فأكثر اللغة كتبت في العصر العباسي الأول لا قبله، وكانت أهم وسائل النقل هي ماذكرنا من رحلة العرب الى العراق، ورحلة علماء العراق الى البادية، وتحرير اللغويين بما سمعوا من العرب مباشرة أو بواسطة.

وبعد، فهل كان كل الذي دوّنوه صحيحًا؟ وهل كان الآخذون وهم علماء اللغة والمأخوذ عنهم وهم العرب كلهم ثقة؟ الحق أن لا! وأن بعض العرب كانوا يخطئون

1- الأغاني 3: 52.

2- طبقات الأدباء لابن الأنباري ص 84.

3- ابن خلكان1: 550.

أحيانًا، ويكذبون أحيانًا، وأن بعض علماء اللغة كانوا يخطئون أحيانًا ويكذبون أحيانًا، كان العلماء شغوفين بأن يقفوا على جديد لم يعرفوه، وكانت المنافسة بينهم شديدة، وحب الفخر والتظاهر شديداً خصوصًا في مجالس الخلفاء والأمراء. وكان يُقضَى على العالم في جهله بكلمة أو خطئه في كلمة، فدعا بعضهم لأن يتزيّدوا ويختلفوا إذا أحرجوا، وأحس بعض الأعراب بهذه النفسية فكانوا يُغربون أحيانا، ويختلفون أحيانًا. وسبب آخر وهو أن العداء بين البصريين والكوفيين بلغ مبلغًا عظيما، فكان علماء كلتا المدينتين يتشيّعون لمذهبهم، ويبرهنون عليه بالمصنوع أحيانا، وكتب النحو واللغة مملوءة بالأدلة على ما نقول.

أما خطأ العربي فقد يكون من عدم فهمه لمعنى الكلمة، كقول عربي يصف إمرأة بالغفلة:

لمْ تَدْرِ ما نسْجُ اليَرَنْدَجِ قبْلَها ودِراسُ أعوصَ دارسٍ متخددِ

ظن أن اليرندج يُنسجُ، وإنما جلد يصبغ [1]

وقال عمرو بن كلثوم:

علينا البيْضُ واليلَبُ اليماني وأسياف يقُمْنَ وينحنينا

قال إبن السّكيت. سمعه بعض الأعراب، فظن أن اليَلب أجودُ الحديد، فقال: «ومحورٍ أخلص من ماءِ اليلَب» وهو خطأ، وإنما هو جلود تنْسجُ [2]

وأحيانا يكون خطأ العربي ناشئًا من عدم فهم طبائع الأشياء، كقول عربي يصف درّة:

فجاء بها ما شئت من لَطَمِيَّة يَدُومُ الفُراتُ فوقها ويموج

فجعل الدر من الماءِ العذب، وإنما يكون في الماء الملح.

وقد يكون خطأ في الحوادث التاريخية، فقد قال الكميْت:

كأنّ الغُطَامطَ من غليِها أراجيزُ أسْلَمَ تَهجو غفِارا [3]

1- المزهر1: 248.

2- لسان العرب2: 306.

3- الغطمطة: صوت القدر

فقال نُصيب: ما هجت أسلم غفاراً قط! وقد يكون من سوء تصريف العربي ، فقد قال عربي - وكانت قد ماتت زوجاته تباعًا-:

غدًا مالكٌ يرْمي نســـائي كأنما نسائي لسَهْمي مالكِ غرضانِ

فيا ربِّ فاترك لي جُهيْمة أعصُرا فمالكُ موتٍ بالقضاء دهاني!

ذلك؛ أن هذا الأعرابي لما سمعهم يقولون «ملك الموت» سبق إليه أن هذه اللفظة على زنة فَعَلَ -كفاك- فاشتق منها كلمة على وزن «فاعل» مع أن مَلَكَ على وزن مَفَلَ لأن أصله مَلأك فالإشتياق خطأ. وكهمزهم مصائب، قياسًا على صحائف، وهو غلط لأن ياء مصيبة أصلية، وياء صحيفة زائدة، الخ.

وأما أكاذيبهم، فقد عقد المبّرد بابًا في كتابه الكامل، سماه «أكاذيب العرب»- هذا شأن العرب.

وأما خطأ العلماء فتروي منه ما روى ابن الأعرابي قال لقيني أبو محلّم ومعه أعرابي، فقال جئتكم بهذا الأعرابي لتعرفوا منه كذب الأصمعي، أليس كان يقول في بيت عنترة:

شَرِبَتْ بماء الدُّحْرُضَيْنِ فأصبحتْ زَوْراءَ تَنْفِرُ عنْ حِياضِ الدَّيْلَمَ

إن الديلم الأعداء بأنهم أعاجم، والعرب كانوا يعدون جميع الأعاجم أعداءهم. فسلوا هذا الأعرابي، ما معنى الديلم؟ فسألناه فقال: الديلم حياض بالغوْرأوْرَدْتُها إبلي غير مرة!

والظاهر أن معاجم اللغة بعد ذلك جمعت كلّ ما رُوي وتأوّلت الخطأ، وصححت الغلط، وأخذت آراء العلماء على اختلافهم من غير تدقيق، فقد تأولوا كلمة «مالك» الواردة في البيت السابق، وقالوا في اليلب إنّهُ الحديد أو الجلد، وصححوا الشطر الذي رويناه «يدوم الفرات فوقها ويموج» بقولهم تدوم البحار فوقها وتموج، وفسروا الديلم بأنها الأعداء أو حياض بالغور، وأسبغوا على العرب نوعًا من العصمة ليس بصحيح، حتى زعموا أن العربي لا يطاوعه لسانه في الخطأ ولو تمّد، وروا لذلك الحكاية المشهورة التي كانت بين سيبويه والكسائي، والحق أن العربي الصميم؛ مثله كمثل الإنجليزي الصميم، والفرنسي الصميم. ولو أراد الفرنسي مثلا أن يحوّر لسانه؛ لينطق بالخطأ عمداً لاستطاع ذلك في يسر، وهو كذلك يخطئ في استعمال بعض الكلمات والتراكيب، ونحو

ذلك، فالعربي مثال ذلك. ولكن مهما قلنا في الخطأ أحيانًا وفي الكذب أحيانًا فهو صفة عارضة ونادرة، وكان الأغلب فيما نقل من اللغة والصدق والصواب.

وقد جد العلماء الأولون في تمحيص ما جمع من ألفاظ اللغة، فقد رأوا أن هناك كلمات كثيرة أخذت عن قبائل مختلفة، لكل قبيلة لفظ أو لهجة، وبعضها أفصح من بعض. ورأوا ألفاظًا لم يستوثق من صحتها، والذي جاء بها لا يوثق به، ورأوا كلمات اختلف في تحديد معانيها، لأنها رويت في جُمَل، واللفظ فيها يحتمل أكثر من معنى واحد. ورأوا ألفاظا صُحِّفَتْ، وألفاظًا كان ينطق بها عربي ألثغ؛ فيظنها الآخذ عنه لغة، وهكذا. فاضطروا أن يحرروا ذلك كله ويمحصوه، فبذلوا من الجهد ما يستدعي الإعجاب، وبينوا من اللغة ماهو صحيح وفصيح، وضعيف منكر، وردئ مذموم فقالوا مثلا: ثَبْطَتْ شفةُ الإنسان ورمَت، وليس بِثَبَت- أرض حشْواء كثيرة التراب، وليس بثبت وهكذا. وألّف ابن خالوية كتابًا سماه «ليس في كلام العرب» بيّن فيه ألفاظًا تستعمل ولم يصح سماعها عن العرب، وقالوا: قال الأصمعي ما سمعنا العام قابةً أي صوت رعد، ولم يروه أحد غيرَ الأصمعي، وإنما روى العلماء ما أصابنا العام قابَة أي قطرة، وقالوا الغرْز لغة أهل البحرين والغرز اللغة العليا، وهكذا. وقد تكون الكلمة واحد، ويختلف العرب في النطق بها فقبيلة تقول، الطبء، في الطَّبع، وأما واللّه، وهما واللّه، وحما واللّه، والأباب والعياب. وأنّ له وعنّ له، والإعاء والوعاء. وهضم عليهم وهجم عليهم، إلى مئات من مثل ذلك. وليس لإختلافهما من سبب إلاّ اختلاف القبائل العربية يفي النطق، وأحياناً من العلماء في الكتابة، وهو ما يسمى بالتصحيف، فقالوا: وبها سُؤدة من شباب، أي بقيّة من شباب، ثم قالوا وبها سؤرة من شباب أي بقية، وليست الأولى إلا تصحيفا للثانية. وأحيانا يكون العربي ألثغ، فيقول في الشابة الثابة، وفي الديك الديش. وقد تعرض العلماء لشيء من ذلك ولم يستوفوه، ولكن المتأخرين وبخاصة صاحب القاموس المحيط كدّسوا ذلك كله من غير تمحيص، وفخروا بأنهم زادوا موادّ كثيرة عمن قبلهم، وكان الأولى أن تستبعد اللثغات، ويحقق التصحيف، ونترك اللهجات. وإذن لا تتضخم هذه المعاجم، وتملأ فراغًا كبيراً نحن أحوج إليه في ألوف الأشياء التي ليس لها اسم واحد.

وكان المدوّنون للغة في هذا العصر يدونون المفردات حيثما اتفق، وكما يتيسر لهم سماعها. فقد يسمعون كلمة في الفَرَس، وأخرى في الغيْث، وثالثة في

الرجل القصير. وهكذا، فكانوا يقيدون ما سمعوا من غير ترتيب. وكانت الخطوة الثانية، أن جمعوا الكلمات الخاصة بموضوع واحد، وأظهر ماكان ذلك في كتب الأصمعي، فله كتاب الأنواء، وكتاب الميسر والقداح، وكتاب خلق الفرس، وكتاب الإبل، وكتاب الشاء، وهكذا، يجمع ماورد من الألفاظ اللغوية في موضوع واحد، ويسميه كتابا، وقد يكون الكتاب بضع ورقات، ثم كانت الخطوة الثالثة عمل المعاجم.

هذا موجز في القول من الناحية اللغوية للثقافة العربية، وهناك ناحية أخرى هي الناحية الأدبية، فقد كان للعرب أدب غزير ممتع، وكان بجانب رواية اللغة رواية الأدب، بل كثيرا ما تكون رواية اللغة في ثنايا رواية الأدب، وكان عرب البادية في ذلك العصر مصدراً للغة والأدب معًا.

كان الناس إذ ذاك يتلذذون من سماع حديث الأعراب، لخفة روحهم وعذوبة نطقهم وبساطتهم، قال الجاحظ: «ليس في الأرض كلام هو أمْتع ولا أنفع، ولا آنقُ ولا ألذفي الأسماع، ولا أشدُّ اتصالا بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويمًا للبيان؛ من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء، والعلماء البلغاء» [1] وقال ابن عبد ربه- في كلام الأعراب-: «هو أشرف الكلام حسبًا، وأكثره رونقًا. وأحسنه ديباجا، وأقله كلفة، وأوضحه طريقة، إذ كان مدار الكام كله عليه، ومنتسبه إليه»[2] وقد عقد فصلا طويلا، نقل فيه شيئا من كلام الأعراب في الزهد والمدح والذم والغزل والخيل والغيث، والنوادر والملح، والطعام، الخ[3]. وعقد الحضري فصلا ممتعًا عنوانه: «فقَر من كلام الأعراب في ضروب مختلفة»[4] وفي الحق، إنك تقرأ هذ ه الفصول فتؤمن بأن أدبهم جيّد اللفظ، قريب المعنى، قليل الكلْفة.

يقول أعرابي في امرأة يحبها: «لقد نَعمت عيْنٌ نظرتْ إليها، وشقى قلب تفجّع عليها، ولقد كنت أزورها عند أهلها، فيرحّب بي طرْفها، ويتجهّمُني لسانها» وكره أعرابي البصرة وأهلها فقال:

1- البيان والتبيين1: 110 2- العقد2: 92

3- المصدر نفسه2: 132. 4- زهر الآداب هامش العقد 2: 2.

«دخلت البصرة، فرأيت ثياب أحرار على أجساد عبيد، إقبال حظهم إدبار الكرام، شجر أصله عند فروعه، شغلهم عن المعروف رغبتهم في المنكر» ووصف أعرابي أميراً، فقال: «إذا ولى لم يطابق بين جفونه، وأرسل العيون على عيونه، فهو غائب عنهم، ساهد معهم، فالمحسنُ راج والمسئ خائف» وقدم أعرابي البادية - وقد نال خيراً من البرامكة - فقيل كيف رأيتهم؟ قال: «رأيتهم وقد أنست بهم نعمة كأنها من ثيابهم» إلى كثير من أمثال ذلك. ولهم النادرة الحلوة، والفكاهة العذبة يتفكه بها الخلفاء في مجالسهم، والخاصة في أحاديثهم، والأدباء في سمرهم. وروى الأصمعي -مثلا- في ذلك الشيء الكثير، يفرّج به همّ الولاة، ويضحك به السُّمّارَ -سافر أعرابي الى رجل فحرمه، فقال لمّا سئل: «ما ربحنا في سفرنا إلاّ ما قصرنا من صلاتنا، فأما الذي لقيناه من الهواجر، ولقيت منا الأباعر، فعقوبة لنا فيما أفسدنا من حسن ظننا!» وقيل لأعرابي ما عندكم في البادية طبيب؟ قال حُمُرُ الوحش لا تحتاج إلى بيْطار!. وسأل أعرابي رجلا فاعتل عليه فقال: إن كنت كاذبًا فجعلك الله صادقًا! وقال الأصمعي: أصابت الأعرابَ مجاعة، فمررت برجل منهم قاعد مع زوجته بقارعة الطريق، وهو يقول:

يارب إني قاعد كما ترى وزوجتي قاعدة كما ترى

والبطن مني جائع كما ترى فما ترى يا ربنا فيما ترى؟ الخ.

ثم لهم الحكمة الرائعة يجرون فيها على سنن حِكَم أكثم بن صيفي والأحنف بن قيس هي أشبه ما يكون بالأمثال، قال أعرابي: «الدنيا تنطق بغير لسان، فتخبر عما يكون بما قد كان» «لم أر صاحبًا أغرَّ من الدنيا، ولا ظالمًا أغشم من الموت، ومن عصف عليه الليل والنهار أردياه، ومن وُكِّلَ به الموت أفناه!» وقال لأعرابي: «الدراهم مياسم، تسِم حمداً وذمًا، فمن حسبها كان لها، ومن أنفقها كانت له، وما كل من أعطى مالا أعطى حمداً، ولا كل عديم ذميم!» وقال أعرابي: «إذا كان الرأي عند من لا يُقبل منه، والسلاح عند من لا يستعلمه، والمال عند من لا ينفقه ضاعت الأمور!» وقيل لأعرابي لم لا تطيل الهجاء؟ قال: «يكفيك من القلادة ما أحاط بالعُنق» الخ.

ولهم الشعر الرقيق العذب كالأعرابي يقول في رثاء ولده:

دفنت بنفسي بعض نفسي فأصبحتْ وللنفس منها دافن ودفين

وكالأعرابي يقول في سوداء:

كأنها والكُحْل في مِــــــرْوَدِها   تكْحَل عينيها ببعض جلدها

وأنشد الرّياشي لأعرابي:

ما كنت للقــلب إلاّ فتنة عرضتْ   يا حبّذا أنتِ من معْــروضة الفتن

تسئ سلْمى وأجزيهــا به حسَنًا   فمن سِواي يجازِي السّوْء بالحسنِ

وقال أعرابي قتل أخوه ابنا له، فقُدّم إليه أخوه ليقتاد منه؛ فرمى السيف من يده، وقال:

أقول للنّفسِ تأساءَ وتعزيــــةً   إحدى يدَيَّ أصابتني ولم تُرِدِ

كلاهما خلفٌ من فقْدِ صاحبه   هذا أخِي حين أدْعوهُ وذا ولدي

ولهم القصص عن حروبهم وأيامهم، فكانوا يروون أيام العرب في جاهليتها وإسلامها، وما كان فيها من أحداث، وحرب داحس والغبراء، ومقتل كليب بن وائل. كما يتحدثون بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته، والصحابة وماكان بينهم، ويروون شعر الشعراء من جاهلين وإسلاميين، وخطب الخطباء، وأمثال الحكماء، ونوادر الظرفاء.

كل هذا كان في البادية، فهم رواة الأدب القديم، ولهم إنشاء في الأدب الحديث، لذلك قصدهم العلماء يأخذون عنهم كل ذلك.

وفي الحق كانت سكناهم في البادية، وقلة امتزاجهم بغيرهم من الأمم أدعى لأن يسلكوا سبيل الأولين، ويتذوّقوا ذوقهم، ويعجبوا بمآثرهم، ويسيروا في الأدب على مناهجهم. فإن تأثر شعراء العراق وأدباؤهم بالفرس ومن إليهم؛ فإنّ هؤلاء تأثروا آباءهم في الجاهلية وآباءهم فيّ الإسلام، وكان أدبهم صورة حيّة للأدب القديم، وصدورهم واعية لآثار الأقدمين، ونوع معيشتهم أشبه بمعيشة الأولين، قال عمر بن عبد العزيز : «ما قوم أشبه بالسلف من الأعراب، لولا جفاء فيهم!»[1]

بقلم: أحمد أمين

كتاب «ضحى الإسلام» ج1

1- النقد2: 93.

obeikan.com